# الأغنياء والروح العامة

للأستاذ إبراهيم عبد القادر المازنى

سألنى صديق ذات يوم : ماذا عساك كنت تصنع يالك لو كنت ذا مال ؟

فكان أول ماخطر لى فى جواب سؤاله : أن ذات المال أولا ، وبعد ذلك تفكر فيما يمكن أن نصنع به .

وكف الصديق عن مسألتى ، لما رآنى أفتر من وجع الدماغ بلا موجب ، ولكنى أنا ذهبت بعد ذلك أفكر فى سؤاله جادا ، وأوثر الدقة فأقول ، إنى فكرت فى أمر أغنيائنا وهم كثير والحمد لله الذى لايحمد على المكروه سواه .

ولعلكم فهمتم أنى غير راض عن كثرة الأغنياء فى مصر ، ولا عن مبلغ غناهم أيضا ، وهذا صحيح ، وليس معنى هذا أنى أكره أن أرى الناس فى رغد وخفض وسعة ، معاذ الله ، كل مافى الأمر أن كثرة الغنى والأغنياء تنقلب فى النهاية نقمة على الأمة إذا لم تكن مقرونة باستخدام جانب من هذا الثراء فى تعهد الفقراء ، ولهذا أرانى مشفقا جدا من مغبة الحالة فى مصر .

ذلك أن البون بعيد جدا بين الغنى منا والفقير ، وليس كل ما أعنيه ببعد البون بين الفريقين أن الأغنياء عندهم كل ماالشتهوه ، وأن الوسائل كلها متيسرة لهم ، وأن الفقير محروم حتى من العلم والصحة ، وإنما أعنى أيضا أن الأغنياء عندنا لا يعرفون إلا ماهم فيه ، وأنهم قلما يشعرون بما يعانيه الفقراء ، فإذا سمعوا بذلك أو حدثهم به محدث استغربوا لأنهم ألفوا الخفض والدعة ، وإذا فهموا لم يزيدوا على الإعراب عن الأسف باللسان ، دون أن تحس قلوبهم شيئا من الالم ، أو العطف الصادق ، ولم يشعروا بدافع إلى عمل شىء يخفف هذا البلاء الذى يكابده الجمهور الأكبر من الشعب ، أما الفقير فعلى خلاف ذلك بل نقيضه — يعرف ماهو فيه من الضنك والعجز وسوء الحال من كل وجه ، ويعرف أيضا مافيه الأغنياء من النعمة والترف ، ويقيس حاله المنكود إلى حالهم المحسود فيندب سوء حظه ، ويسخط على هذه القسمة التى لا يرى فيها عدلا ، وقد يحوقل ويسترجع لقضاء الحظ فيه ولا يخطر له أن يتمرد ، ولكنه لايكون فى سريرته وقرارة نفسه إلا متبرما على الأقل .

هذا هو الذى أعنيه على الخصوص بالفرق بين أغنيائنا وفقرائنا ، أما مجرد تفاوت الرزق فشىء لم تخل منه الدنيا قط ، ولا يمكن أن تخلو منه ، حتى فى الدول الاشتراكية أو الشيوعية لاسبيل الى المساواة التامة ولا معدى عن قدر من التفاوت فى الأرزاق والحظوظ ، وليس هذا بذى قيمة تستحق الذكر ، وإنما الذى له قيمة ولابد أن يكون له أثر لايمكن أن يكون حميدا فهو فى غفلة الأغنياء .

---

نص المحاضرة التى أذيعت فى البرنامج الثقافى لوزارة الشئون الاجتماعية

حدثت مرة رجلا أنعم الله عليه بالثراء وكنت أرجو أن أوفق إلى إقناعه بإقامة مستوصف للفقراء أو مطعم شعبي أو في شيء من هـذا القبيل بدلا من التبرع لنادٍ رياضي ، فكان آخر ماسمعت منه بعد أن بح صوتي ونشف ريقي أن الفقراء هذا حالهم أبدا وما زالوا يعيشون هكذا طول عمرهم هم وأبناؤهم من قبلهم ، فقلت له إن كونهم فقراء منذ جاءوا الى هذه الدنيا لا ينبغي أنهم يرمون بالنباتة وهم ساخطون على رقة الحال ثم إنه لا ينبغي أن ننسى أنهم جديرون بالعطف والرحمة والمعونة ، ولكني أخفقت في إقناعه .

وحادثت رجلا آخر من سراتنا ، فتفلسف وقال ، إن العبرة ليست بالفقر ، بل بثقل وطأة الإحساس به ، ومادام أن فلاحينا لا يثقل على كاهل صدورهم ماهم فيه من الضنك ، فهم راضون شاكرون .

فقلت له إن هذا كان خليقا أن يكون صحيحا لو كان الناس جميعا على غرارهم ، إذا لما أحسوا شيئا من التفاوت ولما دفعهم هذا التفاوت إلى التأمل والمقارنة والمقابلة ، ولكنهم يرون الأغنياء ولا يخفى عليهم ما ينعمون به من نضارة العيش وخصب الجناب ، فليس يسعهم إلا أن يقيسوا حالهم الزرى إلى هـذه الرفاهية المشتهاة ، ثم إنهم كانوا خلقاء أن يرضوا عن حظهم السيء أو يتقبلوه بالصبر ، لو رأوا من دؤلاء الأغنياء مواساة لهم وعطفا عليهم وبرا بهم ، وتعضيدا لهم ، إذا لزادوا على الصبر شكروا ، وحمدوا الله الذى جعل بينهم أغنياء فيهم خير وتقوى ، أما والحال ليس كذلك والأغنياء يزدرونهم ولا يعبأون شيئا بما هم فيه من نكد العيش فماذا تنتظر ؟

ولما كانت الملاريا فاشية في بعض أقاليم الصعيد قلت لواحد من أهل تلك البلاد آتاه الله سعة عظيمة في رزقه ، ألا تخرج لهم شيئا مما أعطاك الله ؟ فسألني أي شيء أعني ؟ قلت الطعام والكسوة ، قال هذا شأن الحكومة ، فلست أستطيع أن أطعم وأكسو قرى بأثرها ، قلت صحيح ولكن هذا لا يمنع أن تجود بما عندك والقليل الى القليل كثير ، فأبى ، فلم يسعني إلا أن أقول له إنه أحق لأن دؤلاء الذين يتعدهم المرض أو يقتلهم هم الذين يعملون في مزارعه ، فماذا يكون مصير هذه المزارع المغلة الفياضة بالخيرات إذا قلت الأيدى العاملة أو كلت من الضعف ؟ أو سقطت على كبده الغلطة التى أبت له أن يطعم جائعا من رجاله وعماله أو يكسو عريانا ؟

الحقيقة إن أغنياءنا فيهم غفلة شديدة حتى عن مصلحتهم هم ، ونظرهم قصير غاية القصر لأنهم لا يجعلون مالهم إلا إلى المظاهر التى يعتقدون أنها تزيد في جاههم ، وغير منكور أن أغنياءنا يتبرعون ويجودون ويخرجون عن كثير من حر مالهم ، ولكن انظر كيف يتبرعون ولماذا يسهمون ؟ يفعلون ذلك في الأغلب والأعم تقربا لذوى السلطان وأهل الرياسة أو الجاه

العريض ، ولأن الذى يدعو إلى الاكتتاب أو يرعى المشروع ويتعهده ممن يرجى خيرهم أو يخشى شرهم ، أو ممن يحب الغنى أن يبادى الاتصال به فيفخر بأن يدعوهم إلى ولائمه أو يدعى إلى ولائمهم، أو حتى أن يرى معهم فى محفل أو ناد ، أما أنهم يتبرعون أو يجودون من تلقاء أنفسهم أو بدافع من شعور العطف الذى ينطوون عليه أو لإدراك لمبلغ الحاجة إلى ما يتبرعون له ، فهذا هو الذى أنكره ، ولكل قاعدة استثناء وما تخلو الدنيا من أهل الخير والمروءة ، ولكن هذا هو الأعم والأغلب .

حفيت قدماى مرة من طول السعى بحمل غنى على معاونة جماعة على عمل فيه خير لزمرتهم فخبت وقنطت، ثم رأيت أن أسلط عليه وزيرا ، فما احتاج والله إلى أكثر من كلمة بالتليفون، وزاد فضاعف المبلغ الذى كنت أقترحه أضعافا ثلاثة .

وأنا أدرك أن بعض الروح العامة كما تسمى أو هذا القعود عما يمكن أن نسميه "المروءات الاجتماعية" مرجعه إلى الأثر الذى خلفته عصور الظلم والاستبداد الطويلة التى عانتها بلادنا فيما مضى أيام كانت الحكومة كل شيء والشعب لا شيء، وأيام كان الناس يظلمون ويغبنون ويؤخذون بالشبهات ، ويبتز مالهم ويغتصب ما يملكون ولا رحمة ولا عدل ولا أمن من عسف ، فتعود الناس النفاق والمصانعة والأثرة على الخصوص ، وصارت القاعدة فى الحياة "نفسى نفسى وبعدى الطوفان" .

ولا يزال أثر هذه العصور المظلمة باقيا ظاهرا ملموسا محسوسا فى علاقات الناس بعضهم ببعض ، وفى علاقاتهم بالحكومة والموظفين ، وعلاقات الموظفين بالشعب ، فالناس يسيئون الظن بأنفسهم وبالموظفين ، ويتقون شرهم ولا يرجون خيرهم ولا يبالى بعضهم بعضا إلا بمقدار ما يرغبون أو يرهبون ، والموظفون يعدون أنفسهم "حكاما" ويعدون الشعب "رعية" وينظرون إليه هذه النظرة المتعجرفة ويحرصون معه على "النفخة الكدابة" .

وقد عاد عهد الدستور منذ أكثر من عشرين عاما ، وسوى بين الناس وأطلقت الحريات فى حدود القانون ، ولكن عشرين عاما أو ثلاثين حتى لو حسنت السيرة لا تمحوا آثار القرون الجديدة، فما ظنك ونحن قد أسأنا السيرة مع الأسف لا عن عمد ، فلست ممن يتهمون الضمائر أو يشكون فى صدق السرائر ولا ممن يعتقدون أن مصريا يمكن أن يتعمد أن يفسد ويسىء إلى أمته، ولكنه الجهل أو قلة العقل أو ضعف الإدراك أو قصر النظر ، وإننا على الرغم مما أفادنا التعليم الحديث وما حصلناه من المعارف المختلفة لا نزال متأثرين بذلك الماضى وما فتئنا نمشى فى حاشية من ميراثهم الثقيل .

ولا خير فى أى إصلاح مالم نعمل على محو أثر الماضى، والمحو يكون بالحرص على احترام إنسانية الإنسان وأن تقوم العلاقات بين الناس على الرحمة والعدل والتعاون وأن يدرك الناس فى سلوك الحكومة أنها خادمته لاحاكمته، وفى سيرة الأغنياء أن غناهم ليس نعمة لهم وحدهم بل نعمة للشعب أيضا وبركة .

ولابد أن يجىء اليوم الذى يتحقق فيه ذلك فيتخلص الناس من آثار الماضى ويحيون حياة إنسانية كريمة، وتعرف الحكومة واجبها الصحيح وتؤديه أداء حكيما معقولا، ويعرف الأغنياء حق الأمة عليهم .

سيجىء هذا اليوم بلا أدنى شك، ولكنه لايجىء إلا من أحد طريقين، طريق النضال الطويل المر فى سبيله وليس هذا من الخير فى شىء، والطريق الآخر أهون وأقصر وأرشد، وهو الذى يدفع إليه الإدراك الصحيح وبعد النظر والقدرة على التفطن إلى وجوب مسايرة تيار الزمن قبل أن يفاجئنا اندفاعه ويغلبنا موجه الطامى أو كما يقول ابن لرومى :

أمامك فانظر أى نهجيك تسلك  طريقان شتى مستقيم وأعوج

وعسى أن نؤثر القويم والله الموفق ؛

ابراهيم عبد القادر المازنى

---

إن منشأ شقائنا هو الخلاف الموجود بين أحوالنا ورغباتنا . بين واجباتنا ونزعاتنا ؛ بين الأنسانية والوطنية .

" روسو "